287486 - لماذا كان الإيجاد من العدم نعمة؟

السؤال

لفت انتباهي دعاء تكرر في قناة للقرآن الكريم بين الأذان والإقامة يقول فيه حمدًا لله عز وجل : "الحمد لله أن أوجدتنا من العدم " ، وحقيقة أنا أتعجب لم تعتبر هذه نعمة ، وكل ما رزقنا الله عز وجل نِعَم ، لكن أليس في عدم إيجادي من الأصل نعمة ، وهي كفايتي من التردد بين الذنوب والتوبة ، وخشية التقصير في جنب الله ، وهو واقع لا محاله ، وبين رأي الشرع في ما فعلت يوم كذا وكذا ، وخشيتي من أن يختم الله لي بالسوء ؛ فأكون من أهل النار بدل أن أكون من أهل الجنة برحمة الله لي إلى أخره ، لو لم يوجدني الله لما كنت لأدرك النعمة ولا النقمة ، ولا لأتساءل طوال الوقت ، هل أستحق في هذا الموقف رحمة الله ، وأنه سبحانه وفقني لما يحب ويرضى أم لا ، وهل هذه نعمة أم فتنة ، وهل هذا استدراج من الله أم ابتلاء ورحمة. سؤالي هذا ليس من الجانب العقدي ، فأنا على يقين بأن الله لا يُسأل عما يفعل سبحانه ، وأنه يستحق الحمد على أنه هو الله لا إله إلا هو ، وأنه ربي ، وأنه هداني للإسلام ، لكن لا يسعني إلا التساؤل عن سر النعمة في الإيجاد من العدم ، والعدم في نظري القاصر نعمة ما بعدها نعمة ، والحمد لله على كل حال ، لعله خاطر من الشيطان والله أعلم.

الإجابة المفصلة

الإيجاد من العدم نعمة، لأن الوجود أفضل من العدم ، بلا ريب ؛ بل العدم ليس بشيء ؛ فلا يقال فيه : إنه نعمة في نفسه ، أو إنه أفضل من نعمة الإيجاد .

ثم هو ليس مجرد إيجاد، بل إيجاد محفوف بنعم كثيرة ، كجعل هذا الموجود إنسانا سميعا بصيرا عاقلا، فهذه نعمة، ثم إذا جعله مؤمنا شاكرا فهذه أعظم النعم.

وقد امتن الله على عباده بأن خلقهم- أي أوجدهم من النعم-، وجعل لهم السمع والبصر والفؤاد، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل/78 .

قال ابن كثير رحمه الله: " ثم ذكر تعالى منته على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول-التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول تعالى:

من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه» .

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله: **«ورجله التي يمشي بها»** : **«فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي »**؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون**﴾ [الملك: 23، 24] " انتهى من "تفسير ابن كثير" (4/ 589).

وقال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ الإنسان/1-3

وقال الشنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان" (8/ 379): " وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين:

الأولى: إيجاد الإنسان من العدم ، بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها.

والثانية: الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا كسب للعبد فيها أيضا.

وقد قال العلماء: هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها:

الأولى: وجوده بعد العدم.

الثانية: نعمة الإيمان.

الثالثة: دخول الجنة.

وقالوا: الإيجاد من العدم، تفضل من الله تعالى كما قال: (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) [42 49 – 50] ، ومن جعله الله عقيما فلن ينجب قط.

والثانية: الإنعام بالإيمان، كما في قوله تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [28 56] .

وقد جاء في الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه). الحديث.

وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين، لا كسب له في ذلك.

والثالثة: الإنعام بدخول الجنة كما في الحديث: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ; إلا أن يتغمدني الله برحمته) .

وقد ذكر تعالى نعمتين صراحة، وهما خلق الإنسان بعد العدم، وهدايته السبيل.

والثالثة: تأتي ضمنا في ذكر النتيجة: (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) [76 5] ; لأن الأبرار هم الشاكرون بدليل التقسيم: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا * إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) الإنسان/3 – 5 " انتهى.

وقال سبحانه معددا نعمه على عباده: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الأعراف/10، 11

قال ابن عاشور رحمه الله: "عطف على جملة: (ولقد مكناكم في الأرض) [الأعراف: 10] تذكيرا بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأن الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب" انتهى من "التحرير والتنوير" (8ب/ 36).

قال في موضوع آخر: " وبقطع النظر عن كون الخلق نعمة، لأن الخلق إيجاد والوجود أفضل من العدم، فإن مجرد الخلق موجب للعبادة ؛ لأجل العبودية" انتهى من "التحرير والتنوير" (8أ/ 206).

وبيان هذا المعنى: أن الإيجاد من العدم، إنما يراد لغاية عظيمة هي أعظم الغايات وأشرفها ، وهي عبادة الله تعالى، وهذه الغاية لا تكون إلا بالإيجاد، فكيف يُشك في أن الإيجاد من العدم نعمة، والنعم والفضائل كلها متوقفة عليه؟!

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56 .

فتبين بهذا أن الإيجاد من العدم نعمة من وجوه:

الأول: أن العدم ليس شيئا، والوجود أفضل منه.

الثاني: أن هذا الإيجاد يراد لأعظم غاية وأجل نعمة، وهي العبودية لله، وما توقفت عليه النعم فهو نعمة.

الثالث: أن هذا الإيجاد لا يعني خلق شيء أيَّ شيء، بل إيجاد إنسان سميع بصير عاقل، فهو إيجاد مصحوب بالنعم.

وأما ما ذكرت من المنغصات والاحتمالات ، فهذا من تحقيق العبودية لله تعالى ، أن يجاهد الإنسان نفسه والشيطان ، ويلزم نفسه بطاعة الله تعالى ، والصبر على ذلك ، وبهذا تكتمل النعم بدخول الجنة ، برحمة الله تعالى وفضله .

وأما الكافر، فهذا هو الخاسر حقا، وهو الكافر بنعم الله تعالى، ومنها نعمة الإيجاد، ونعمة السمع والبصر والعقل، ونعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر/14، 16 .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه، المثنين عليه بها.

والله أعلم.